سلطان الكلمة الملفوظة والمسطورة

الدكتور سلوي علوي
- جامعة الجزائر

هي الكلمة التي برأها الله تعالى من (ك،ل،م) «حيثما تقلبت فمعناها الدلالة على القوة والشدة . والمستعمل منها خمسة أصول»[1] . بهذه العبارة الصريحة ضبط أبو الفتح عثمان بن جني أصل الكاف واللام والميم ، وما نجم عنها من بنيات مختلفة ، تؤسس كلها القوة والشدة والسلطان .

1 - «فالكم للجرح وذلك للشدة التي فيه» . «والكلام ما غلظ من الأرض ، وذلك لشدته وقوته» . والكلام من الكلم الذي هو الجرح ، لأن له أثراً في النفس ، نحس به «إن كان حسناً أثراً حسناً ، وإن كان قبيحاً أثر حزناً ، مع أنه في الغالب ينزع الى الشر ، ويدعو إليه»[2] .

2 - وكمل الشيء إذا تم لأنه «يكون حينئذ أقوى وأشد منه إذا كان ناقصاً غير كامل»[3] .

3 - «ولكمه إذا ضربه بجمع كف»[4] . وقد تطورت هذه المادة في عصرنا هذا الى فن يدعى «الفن النبيل» .

4 - و«الملك لما يعطي صاحبه من القوة والغلبة ... وأملكت الجارية لأن يد بعلها تقتدر عليها»[5] .

5 - «وبئر مكول إذا قل ماؤها ... فإذا قلّ ماؤها كره موردها وتلك شدة ظاهرة»[6] .

هذه هي التشاقيق الخمسة التي استهوت ابن جني ، وسعى ما أمكنه ان يربطها بمعانيها المشتركة في القوة والشدة ، فلا غرو في ذلك فقد ورد في القرآن ما يؤيد ذلك ، وأن الكلمة هي الإنسان قال الله سبحانه وعتالى : ﴿وإذ قالت الملائكة يا مريم إن الله يبشرك **بكلمة** منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم وجيها في الدنيا والآخرة ومن المقربين﴾[7] وفي الآية الأخرى ﴿إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله **وكلمته** ألقاها الى مريم وروح منه﴾[8] .

إذن فالكلمة هي الإنسان المبشر به ، وهي عيسى الذي مثله «مثل آدم خلقه من تراب»[9] .

وهو نفخة من روح الله القوي العزيز ﴿ومريم ابنة عمران التي أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا وصدقت بكلمات ربها وكتابه وكانت من القانتين﴾[10] .

هذه النفخة الإلهية تنقلنا الى أصل الوجود كيف ظهر الآدمي ، الذي حير العقول بجبروته وسلطانه ، وابداعاته حتى نازع الإله في ربوبيته ﴿ألم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين﴾[11] .

وخرّت له الملائكة ركعاً وسجداً بأمر الله . وهو إنما هو نفخة من روح الله ﴿إذ قال ربك للملائكة إني خالق بشراً من طين فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين﴾[12] . فلا عجب أن تتحول هذه النفحة الربانية الى قوة وعزة ومنعة . فبالكلمة شيدت الحضارات ، وبالكلمة تلقى الخطب ، وتعطى الأوامر والنواهي ، وتقوم الحروب ، وتدك الحصون المحصنة . وتخرب القصور المشيدة . وما زالت الكلمة مالكة لشدتها وبطئها بل تعززت . فوسائل الاعلام أشد فتكاً من الصواريخ والقنابل الذرية . بدليل أن أول ما تعززه الحكومات ، وتستولي عليه حركات الانقلابات في العالم هي وسائل الاعلام من إذاعة وتلفزة وجرائد ومجلات وقد لقبت الصحافة في بداية ظهورها بـ «صاحبة الجلالة» لما لها من أبهة وجلال وعظمة وسلطان . والعالم كله ينزع الى تطوير وسائل الإعلام لما لها من أثر في تطوير الاقتصاد والسياسة والثقافة ، ولما لها من شهرة تدك الحصون وتكسر القيود ، وتزيل الحدود . مجالها الهواء الطلق الذي لا يستطيع أن يتحكم فيه أحد ، فنفذت من أقطار السماوات والأرض الى أجواء أخرى ، في كواكب أخرى ، وعوالم أخرى ﴿يا معشر الجن والإنس ان استطعتم أن تنفذوا من أقطار السماوات والأرض فانفذوا لا تنفذون إلا بسلطان﴾[13] .

هذه الكلمة هي سائل هوائي ، تمثل في صوت يتم نقله عبر ذبذبات صوتية ، في شكل أمواج هوائية بديعة تنتقل من دماغ الى دماغ عبر قناة تبليغية ، مشحونة بالمعاني المراد تبليغها وأداؤها الى الآخرين في مركب ملفوظ وملحوظ ، عبر عنه باللفظ والمعنى تارة ، والدال والمدلول أخرى ، وما أحسن جواب العفريت لسليمان عليه السلام عندما سأله عن الكلام فقال : «ريح لا تبقى ، قال فما قيده ؟ قال : الكتابة»[14] .

هذه الريح هي الصوت الذي هو «آلة اللفظ ، والجوهر الذي يقوم به التقطيع ، وبه يوجد التأليف ، ولن تكون حركات اللسان لفظاً ولا كلاماً موزوناً ولا منشوراً إلا بظهور الصوت ، ولا تكون الحروف كلاماً إلا بالتقطيع والتأليف[15] .

وتتعاقب الكلم في سلسلة بديعة الإحكام ، وتتعانق الجمل وتترابط لتؤلف نظماً كلامياً ، يسمى أحياناً شعراً وأخرى نثراً في متعارف البشر . ولو تدبر هؤلاء قليلاً لعلموا علم اليقين أن الكلمة هي المنحة الإلهية التي علمها الله لآدم عليه السلام في أصل نشأة الخلق ، فقال عز من قائل : ﴿وعلم آدم الأسماء كلها ☆ ثم عرضها على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين ☆ قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم ☆ قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم﴾[16] . «وتواصلت هذه الروح الإلهية لتتجسم في المعجزة الخالدة على مر الدهور والعصور» «إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾[17] كيف لا وهو الروح الربانية ﴿وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ☆ ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ☆ ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا﴾[18] .

إن هذه الكلمة التي هي الإنسان الذي خلقه الله مهيئاً لأن يتعلم القراءة والكتابة فقال : ﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق ☆ خلق الإنسان من علق ☆ اقرأ وربك الأكرم ☆ الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم﴾[19] فكر وقدر في أن يحفظ الكلام الذي «هو ريح لا تبقى» بأن ابتدع قوالب وأصدافاً تحفظ هذا الهواء المائع من التلاشي والضياع سماها حروفاً باللسان العربي محصورة العدد في كل أمة غير متناهية المعاني والمفردات والتراكيب ، ليعبر بالمحدود عن اللامحدود . وبهذه الحروف والخطوط تتجاوز الكلمة محيط الزمان ، وتصل اللاحق بالسابق ، وبهذا الاختراع البديع يعلو سلطان الكلمة الماضي والحاضر والمستقبل . فيعدو الزمن ، ويصل القريب بالبعيد ، والغائب بالشاهد . «ثم ان أرباب الهمم من بين الأمم ، لما لم يكتفوا بالمحاورة في إشاعة هذه النعم لاختصاصها بالحاضرين ، سمت همتهم السامية الى اطلاع الغائبين ، بل الذين سيولدون بعدهم على ما استنبطوه من المعارف والعلوم واتعبوا أنفسهم في تحصيلها وتدوينها ، لينتفع بها علماء الأقطار ، ولتزداد العلوم بتلاحق الأفكار ، بحثوا عن أحوال الكتابة الثابتة نقوشها على **وجه كل زمان** ، وعن حركاتها وسكناتها ، ونقضها وضوابطها من شداتها ومداتها ، وعن تركيبها وتسطيرها لينتقل منها الناظرون الى الحروف والألفاظ ، ومنها الى المعاني الحاصلة في الأذهان»[20] .

وخلاصة القول ان دلالة الحرف على المدلول هو بمثابة الصمام الذي يحفظ السائل الصوتي ويختزنه في كتب مسطورة ، ورموز خطية مضبوطة ، عبارة عن قنابل مدفونة تداولتها الألسن البشرية على مر الزمن : وعن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى : «أو أثارة من

علم» إنه الخط[21] لأن اللسان كما يقول الجاحظ : «مقصور على القريب الحاضر ، والقلم مطلق في الشاهد والغائب . وهو للغابر الحائن (أي الهالك) مثله للقائم الراهن» .

والكتاب يقرأ بكل مكان ، ويدرس في كل زمان ، واللسان لا يعدو سامعه ، ولا يتجاوزه الى غيره[22] .

إن سلطان الكلمة التي تقوم «بلفظ حامل ، ومعنى قائم ورباط ناظم»[23] ستكون هي نهاية الدنيا كما كانت بدايتها بنفخة إلهية . ﴿فإذا نفخ في الصور نفخة واحدة ☆ وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة﴾[24] ﴿ويوم ينفخ في الصور فصعق من في السماوات والأرض ☆ وكل آتوه داخرين ☆ وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مرّ السحاب صنع الله الذي أتقن كل شيء﴾[25] .

ومن هنا تبدأ رحلة عالم الغيب ، الذي يباين عالم الشهادة ، والذي لا نعلم عنه شيئاً سوى ما جاء في كلم ، تشهد على عظمة الكلمة . «كلا إنها كلمة هو قائلها»[26] فالكلمة هي القدر الأزلي الذي لا نعلم بدايته ، والقدر الأبدي الذي لا نعلم نهايته ، وما بينهما من مشاهد في مسرح عالم الشهادة شهادة على سلطان الكلمة الملفوظة والمسطورة . بها «منا قلتهم في العلم ومحاورتهم وتدريسهم ومناظرتهم ، وبها تقطر في القراطيس أقلامهم وبه تسطر الصكوك والسجلات حكامهم»[27] فبها يتحاكمون وإليها يرجعون . ﴿إن هي إلا صيحة واحدة فإذا هم خامدون﴾[28] .

الهوامش

(1) ابن جني : الخصائص – تحقيق محمد علي النجار – مطبعة دار الكتب المصرية 1371هـ/1952م ، ص13 وما بعدها .
(2) ابن يعيش : – شرح المفصل للزمخشري – المطبعة المنيرية بدون تاريخ ، ص21 ، ج1 .
(3) ابني جني : – الخصائص – ص15 ، ج1 .
(4) المعجم الوسيط ، مادة (ل،ك،م) .
(5) ابن جني : – الخصائص – ص17 ، ج1 .
(6) نفس المرجع والصفحة .
(7) سورة آل عمران : الآية 45 .
(8) سورة النساء : الآية 171 .
(9) سورة آل عمران : الآية 49 .
(10) سورة التحريم : الآية 12 .
(11) سورة يس : الآية 77 .
(12) سورة ص : الآية 72 .
(13) سورة الرحمن : الآية 23 .

(14) طاش كبرى زادة : مفتاح السعادة ومصباح السيادة ، دار الكتب الحديثة القاهرة 1968 ، ص78 ، ج1 .
(15) الجاحظ : البيان والتبين ، مكتبة الخانجي بمصر 1380هـ/1960م ، ص79 ، ج1 .
(16) سورة البقرة : الآية 31/30 .
(17) سورة الحجر : الآية 09 .
(18) سورة الشورى : الآية 49 .
(19) سورة العلق : الآية 1،2،3،4،5 .
(20) طاش كبرى زاده : – مفتاح السعادة – ص81 ، ج1 .
(21) نفس المرجع ، ص78 .
(22)الجاحظ : البيان ، ص80 ، ج1 .
(23) الخطابي : بيان في إعجاز القرآن ، ص19 من ثلاث رسائل في إعجاز القرآن .
(24) سورة الحاقة : الآية 13 .
(25) سورة النمل : الآية 22 .
(26) سورة المؤمنون : الآية 101 .
(27) من مفصل الزمخشري : ص09 ، ج1 المقدمة .
(28) سورة يس : الآية 29 .